التربية الأدبية

للاستاذ محمد محمود زيتون

يحكى أن ملكا من ملوك الفرس غضب على وزير له إثر شائعات ودسائس حتى دنت رقبته من حبل المشنقة . وفى ساعة التنفيذ وقع نظر الملك على بنت الوزير وقد رآها سافرة على غير عادة الفرس من الحجاب ، فبعث إليها من حاشيته من يقول لها:

مولاى يعجب كيف لم تتقنعى قالت له : أتعجبا وسؤالا
ما كان للحسناء تكشف وجهها لو أن فى هذى الجموع رجالا

فى هذا اللون من فن القول ما يكفى للدلالة على أهمية الأدب فى الحياة الإنسانية ، ذلك بأن الأدب يهتف فى دوافعه ونوازعه بمظاهر الشعور ، فاللفظ مسموعاً ومقروءاً أول ما يتصل بالإحساس الذى يوصله بدوره إلى الوجدان فتتفاعل فيه العناصر الأولى للعاطفة . فما بليت الإنسان أن ينزع إلى إتيان أمر أو تجنب آخر

وإذ ذاك يكون الأدب غير دخيل على النفس . لأنه منها يستمد ، ومعها يجرى ، غير أن « الصورة الأدبية » لا تقف طويلا بباب الشعور ، وإنما هى تحمل « جواز المرور » بما تأهلت له من جرس جميل ، وخيال هائم ، ومعنى كريم .

بهذا يكون صاحب هذه الصورة قد وجد أصداء نفسه تتردد فى جوانب غيره بطريق « الإيحاء » الذى يقوم بدور كبير فى نقل التجارب من المعلم إلى المتعلم .

ولما كانت التربية الكاملة تقوم على علاج البدن والعقل والروح بحيث تتعالى الغرائز عن المستوى الحيوانى ، فقد بقى على

والهوى ؛ غير أنى خشيت أن يكشف عن خبيئة نفسى فيحتقر رجولتى ويستخر من ضعفى ، فرجعت إلى الدار التى تقذفنى بالضيق والألم فتبعثر قوتى وتبدد خواطرى . وأنا ألح على رئيسى . على غير عادتى ـ ليأذن لى فأطير إليك . فأصم أذنيه ، فهلا نزلت عن أنانيتك ساعة من زمان ؟ . »

وجاءنى خطابها فاترا مقتضباً ؛ فتبابلت أفكارى واضطربت أعصابى ، فذهبت إلى الرئيس ـ مرة أخرى ـ ورأى فى كلامى الإصرار ، وأحس فى جرأتى العناد ، فخاف أن ينفد صبرى ، فألقى السلم عن يد

وشملتنى هزة من الفرح تبدت لى الحياة من خلالها باسمة تتألق ، وسرى الدم فى عروقى فواراً ينفث فى قوة ونشاطا فقدتهما منذ أن خلفتنى زوجى هنا ـ فى القاهرة ـ أقاسى شدة القيظ وعنت العمل وفراغ الدار وضيق النفس . وتراءت لى زوجتى وهى تلقانى بعد غياب دام نيفاً وثلاثين يوماً ... تلقانى فى طرب يمسح عنى العناد ، وتضمنى فى فرح يمحو عنى الجهد . وتراءى لى ابنى الوحيد وهو يندفع نحوى فى بهجة وسرور يطوقنى بذراعيه الصغيرتين ويغمرنى بقبلاته الحلوة البريئة ، فتأججت روحى بالعاطفة الجياشة عاطفة الزوج والأب . فرحت أهيىء نفسى للسفر وأعد لزوجى هدية جميلة وأختار لابنى لعبة طريفة : . ثم انطلق بى القطار وأنا استحثه واستبطئه

وبلغت الاسكندرية لدى الأصيل

وقال لى عقلى « هذه ساعة يفزع فيها الناس إلى سيف البحر يستروحون النسمات الطرية ويتنشقون الشذا الزكى ويستمتعون بغروب الشمس حين تغرب فى عين حمئة فتلفها الأمواج المضطربة بين ثناياها فى رفق ولين مثلما تضم أم ابنها الوحيد فى شوق وحنان . . »

فجلست فى مقهى على الشاطىء أستجم من تعب ، وأهدأ من اضطراب ، وأعد نفسى للقيا الحبيبة ، وأنصفح وجوهاً تفيض بالبشر وتطفح بالسرور ، وخيالى هناك عند زوجتى ، وابنى لا يبرح

وحانت منى التفاتة فرأيت زوجتى فهممت فى نشوة أريد أن ألقاها ، غير أنى شعرت بأن يدا عاتية تمسكنى إلى الكرسى . . شعرت بأن يدا عاتية تدفعنى عنها لأننى رأيتها تسير مع رجل غريب ، جنباً إلى جنب ، وذراعاً فى ذراع ، ووجهها يفيض بالبشر ويطفح بالسرور .. ونظرت ونظرت

آه ، يابنى ، برغمى أن أفزع عن الاسكندرية ولما أتخم بوجهك الغض الجميل وبسماتك النقية الطاهرة وقبلاتك الحارة الخالصة ونشوتك الوثابة المتألقة . وبرغمى أن أذرك بين يدى هذه المرأة .. هذه الفاجرة !

الاسكندرية — فاضل محمود حبيب

التربية تنسيق القوى النفسانية بحيث لا ينمو البدن على حساب العقل والروح أو على العكس .

والأدب كفيل بتحقيق هذه الغاية ، إذ هو يتفاعل أولا مع الروح ، ومنها تنبثق مؤثراتها على كل من البدن والعقل . وقد أثبتت تقارير « علم النفس الطبي » أن معظم الأمراض التي تنتاب الجسم ، مردها إلى انفعالات عنيفة . واستطاع تلاميذ « سيجموند فرويد » أن يعالجوا قلة اللاعن في أثناء الأمهات بعزف بعض القطع الموسيقية ، كما استكثر بعض الصيادين من السمك باستعمال الحاكي (الفونوغراف) فتهافت السمك على النغم من كل مكان .

وقديماً قالوا « العقل السليم في الجسم السليم » وهذا خطأ ، فقد فطن الأطباء السيكولوجيون إلى علاج الأمراض الجسمانية بالتحليل النفساني والتغلغل في أعماق العقل الباطن للكشف عن العقدة التي هي أصل كل داء وبلاء . وفي الحديث الشريف « من كثر همه سقم بدنه » .

ومما يعزى عن « الفارابي » أنه ابتدع آلة موسيقية عزف عليها مرة فأضحك ثم عزف فأبكى ، وأخيراً عزف فنام من أضحكهم وأبكاهم .

كما أن « ابن سينا » كان يعالج المرضى بالوهم ، بالإيحاء النفساني ، وقصته مع الرجل الذي أصيب بالمالنخوليا فغلب على ظنه أنه بقرة ، معروفة مشهورة .

كذلك الحالة العقلية ينتظم ميزانها غالباً وفق الحالة الوجدانية ، فقد أجريت تجارب على أطفال ، اصطنعت أمامهم عوامل الخوف ولو حظت نتائجها في إجاباتهم على أسئلة وجهت إليهم .

وقد يعجب الناس من هذه « الطاقة » الأدبية التي تنفذ أشعتها إلى أعماق الشعور وتتردد في جوانبه ، والأعجب من ذلك ، ما بين الكيمياء والأدب من صلة وثيقة حتى في الصيغة اللغوية : تفاعلات وانفعالات .

ولكن يزول العجب إذ نسمع مثلا الشاعر العربي يقول :

إني لأتقي المرء أعلم أنه عدو ، وفي أحشائه الضغن كامن
وأمنحه بشرا ، فيرتد قلبه سليما ، وقد مانت لديه الضغائن

فهنا تفاعل بين بسمة الشاعر ، وضغن العدو ، يستحيل به القلب سمحاً كريماً ، وذلك هو الصدى الذي توحي به الآية « الكريمة » ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » ولا شك في أن هذا الإيحاء الصادر عن تلك الطاقة هو السفير الشعوري الذي يقوم بهذا الدور المحمود .

ومن هذا الباب أيضاً ما يروى عن الأعرابية التي ولدت أنثى ، فهجرها زوجها وظل وجهه مسودا وهو كظيم ، من سوء ما يشربه كعادة الجاهلية ، فلما مر بخيمتها ذات يوم سمعها تقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا
يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا
تا لله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد غرسوه فينا

وإذا بهذا الأعرابي ينبض قلبه بالحنان ، وينبثق بالرحمة — وهو الصخر الأصم — فيقبل صاحبته ويحتضن بنته .

ونحن بهذا لا نقوم بدعاية للأدب — وهو مشروع غير ممنوع — ولكننا بصدد التقريب بين رسالة الأدب ، ومؤهلات التربية كوسيلتين للاصلاح . ولا شك أن الذوق السليم ، والنفس الراضية المرضية من أعز المواهب التي تستكمل بها فضائل الإنسان ، الذي يعرف أن له كرامة يجب أن تصان .

وما أسرع الأدب إلى تحقيق هذه الغاية : فإنه هو الذي يكفل للناشىء حياة مضمونة إذا درج على سماع الكلام الموزون ، وإلقائه وتمثله وتمثيله ، والاستشهاد به في بعض الأحايين .

وأول الطريق هو « الوجدان » الذي يكاد يشبه الكرة من المطاط إذا لم ينفخ فيها الهواء ركدت وأخلدت إلى الأرض ، وكذلك القلب بحاجة إلى غذاء الروح ، وهذا هو الغنى وتلك هي العافية للفرد والمجموع معا ، والفقر ليس في الجيوب ، ولكنه في القلوب ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب »

وما أجدرنا باليدء من هنا للقضاء على ما يسمونه بالميادىء الهدامة ، ولن يكلفنا الأمر أكثر من تغذية الفرد بتراثه العربق

من أمثال وحكم وتعليقات سلطانية ، وقصص وملاحم ، وقصائد وخطب ، ومسرحيات ، مما يدخل الآذان بلا استئذان فيستقر فى الوجدان ، ولا سيما إذا كان من صميم البيئة ومن أصول الموائد والتقاليد التى قامت الأيام بتمثيلها على مسرح المجتمع .

وإذا كانت معدة الفرنسى تستسيغ أكل القواقع والغيران مما تتأفف منه نفس المصرى وتعافه ، فكذلك لكل شعب « معدة أدبية » خاصة وذوق لا يعيبه أنه يطرب للموسيقى الشرقية ولا يهتز للموسيقى الغربية ، وتستهويه ألحان سيد درويش دون سيمفونيات بيتهوفن .

وهل ينكر أحد أثر خطبة طارق بن زياد فى رجاله « البحر وراءكم والعدو أمامكم » تلك الخطبة التى إذا أخذنا الناشئة على إلقائها انطلق عقال ألسنتهم وسلموا من رخاوة الحديث ورطانة الغرب ، وأكبروا هذه الفلذة الحية من دماء ماضيهم التى دفعت القائد الجبار إلى إحراق أسطوله ليمضى قدماً إلى اليرانس حيث اتصلت حضارة العرب بأوروبا وحتى استمد الشعر البروفنسى عناصره من حضارة العرب كما يقول جوستاف لوبون .

وهذا عقبة بن نافع يخوض بجواده المحيط الأطلسى فيقول : اللهم رب محمد لولا هذا البحر لفتحت الدنيا فى سبيل إعلاء كلمة الله . وهذه الأمثال العربية الناضحة بالحكمة ، الزاخرة بالروعة مثل : حمى الوطيس ، يا خيل الله اركبى ، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، كيف تصاحبنى وهذا أثر فأسك . وكذلك التوقيعات السلطانية المحفوظة فى سجلات الشرف والعزة مثل « كثر حاسدك وقل حامدك فإما اعتدلت وإما اعتزلت » ومثل « دع الضرع يدر لغيرك كما در لك » .

ولا شك أن هذه الروائع الأدبية من ألزم اللزوميات للزعامة الرشيدة والقيادة المستنيرة ، فقد كان النبى عليه السلام ينشد لعبدالله بن رواحة رجزاً جميلا وهو يعمل مع العاملين فى حفر الخندق ، فى غزوة الأحزاب فيشتد أزرهم وتنشط قابليتهم للعمل ، فلا يطغى التعب على مجهودهم ، كلما رددوا وراءه عجز الرجز :

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن نادينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ويكررون الكلمة الأخيرة من رجز الراجز :

سماه من بعد جميل عمرا .
وكان للبائس يوماً ظهرا .

على أن الخيال الذى قد يؤخذ على الأدب إنما هو دعامة العلم الثابت . والميتودولوجيا (علم مناهج البحث) تحدثنا أن الاختراعات لم تكن قبلا إلا أخيلة فى عقول أصحابها ، وفروضاً هائمة اقتنصها أرباب الاختراع كما هو معلوم من تفاحة نيوتن ، وحمام أرشميدس ، حتى جاء الفيلسوف برجسون فانتصر لمنصر الإلهام فى مجال العلوم الخالصة .

ولا حرج فى القول إذن بأن أول مخترع للطائرة هو الشاعر العربى الذى تكتنفته الجاهلية بأطباقها ، ومع ذلك وصف فرسه فقال :

ولو طار ذو حافر قبلها لطارت ولكنه لم يطر

وما أروع الصور الأدبية ذات الألوان والأنغام اذا عرضت على السمع الذى لا يألف قول المتنبى وهو يمدح سيف الدولة :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محيية إليك الأغصنا

وكذلك وصف العربى لنفسه وهو يتهدج فى لفظه من طول ما أخنت السنون عليه ، وأناخت على عوده فيقول :

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا
والذئب أخشاه إن مررت به وحدى وأخشى الرياح والمطرا
من بعد ما قوة أعزها أصبحت شيخا أعالج الكبرا

وما أنجح تلك المحاولة التى قام بها الأستاذ الدكتور محمد صبرى [1] فى تقريبه بين معلقة امرىء القيس وبعض اللوحات الفنية الأوروبية لمشاهير الرسامين ، وإن كنا نعلم أن « الشعر رسم ناطق ، والرسم شعر أخرس » وهذا جبران خليل جبران يتصور فكرة الألوهية فيرسمها بيده الصناع فتخيلها فى صورة كف مبسوطة فى وسطها عين مبصرة . ومن حولها سحاب الزمن تدور فيه الملائكة بأجيال البشر .

(١) فى كتابه : الشوامخ

ومع هذا فأين هذه الصورة المرسومة من تلك الصورة الشعرية التي عرضها جبران الشاعر عن الفجر إذ يقول :

هل شربت الفجر خمرا في كئوس من أثير
وتنشقت بمطر وتنشقت بنور

وهل تنصل الخيوط المستطيلة والمستعرضة الأنسجة الجميلة التي اصطنعها شعراء العرب على نول الفنون ؟ كلا فإنها لا تبلى على ممر الأيام ، بل تظل تبهر العقل والوجدان ، وتستثير الحس ، وتستهوى الذوق ، فقد أحكم صوغها ، فاهتزت لها النفس واستجابت لها الإرادة طائعة مختارة فكأنما هي أسراب طائرة في فلك الجمال ، تسبح فيه كما تشاء ، وتهبط آخر الأمر على أرض الإنسانية فتزودها بنور الفضيلة ، ما وسعها الزاد .

هذا العربي الأبي النفس الكريم الخلق ، يقول :

وأغض طرفي حين تبدو جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وهذا العربي أيضا يقول:

إذا كنت ربا للقلوص فلا تدع رفيقك يمشي خلفها غير راكب
أنخها فأركبه ، فإن حملتكما فذاك ، وإن كان العقاب فعاقب

والنفس الشرقية لا بد مستجيبة لهذا الخلق لأنه من سجيتها وطبعها المغروس فيها المركب في سلوكها .

وهذا عنترة العبسي يدلي بدلوه في التربية الأدبية إذ يذكر عبلة وهو في المعمعة فينفث في فيثارته حب الرجل الذي لا يفقده غرامه معالم رجولته إذ يقول:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وفي أسطورة بشر بن عوانة حفز للبطولة ، وإذكاء للهمة ، ولن أنسى قط وقعها في نفوسنا يوم كنا نحفظها وننشدها عن ظهر قلب عندما كنا لا نزال تلاميذ بالمدارس الأولية ، تلك القصيدة التي مطلعها :

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا

وأشهد أن روح القصيدة كان من أهم العوامل على تطلعنا إلى فهم مغلقات ألفاظها الجزلة ، التي لم تعد الأذن تنكرها لسلاسة الشعر ، وعذوبة الروى ، ونبالة الهدف .

وكلما تعمقت في الكشف عن سبب ميلي إلى الأدب ، وصلت إلى ما كان يدعوني إليه جدي عليه رحمة الله كلما قدمه ضيف كبير. فقد كان يطلب إلى وإلى أترابي من بني الأعمام إلى التنافس في إلقاء ما حفظناه من الشعر في المحفوظات ، ونحن بعد تلاميذ بالمدرسة الأولية وكان يشجع الفائز بالتصفيق والتشجيع وبما وراء ذلك طبعا من القروش والحلوى .

وللأدب مع ذلك كله رسالة خالدة قام بها أصحاب النفوس الكبار من أمثال محيي الدين بن عربي الذي نفض عن وجدانه غبار التعصب ، واخترق ضباب الحياة ليحلق في أسمى فلك عرفة القلوب إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه دانى
فأصبح قلبي قابلا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

وما أروع قول من قال في أخذ العدو باللين والسياسة لا بالعنف والجبروت :

إذا المرء أولاك الهوان فأوله هوانا وإن كانت قريبا أواصره
وإن أنت لم تقدر على أن تهينه فدعه إلى الوقت الذي أنت قادره
وسالم إذا سالم تكن لك حيلة وأقدم إذا أيقنت أنك عاقره

على أننا لا نريد بالتربية الأدبية مجرد تلقين الآداب في ألوانها المختلفة وحفظها وتسميعها ، ولكن نأمل العمل على توجيه المواطن منا نحو الفنون عامة من مهده إلى لحده . وعليه أن يتخير منها أقربها إلى ميوله ومشاربه ؛ فإذا اعتطاب الأدب ، دفعناه إلى الإنشاء سواء في نظم القصيد أو ارتجال الخطب أو على الأقل إجادة التحدث إلى الناس ، ومراعاة مقتضى الحال ، والتزام البيان والبديع في كل ما يقول ، وذلك أضعف الآداب .

ونأمل أيضا العناية بالأدب المعاصر ، وتوخي عناصر القوة فيه ، وجعل معظم الدروس الأدبية قائمة على ما يمس حياة العصر وحفز الناشئة على التحليل ، ومحاولة الوصول إلى قواعد النقد ، وأصول الأدب . وذلك هو سبيل التبشير لا التنفير ، في وقت سادت فيه المادية ، وأغمضت العيون عن أفلاك الجمال ، وجمدت المواطف على الأدب الرخيص إن جاز أن يوصف بذلك أدب